

المحاضرة الأولى (01): قضية الوضوح والغموض

الغموض والوضوح لغة واصطلاحاً

الغموض: لغة غمض الأمر: خفي مأخذه ومعناه، لم يفهم "غمض كلامه فلم أفهم منه شيئاً- صيغ القرار بصورة غامضة- أسلوب غامض". غمض الكلام: غمض؛ خفي مأخذه، ولم يُدرك مغزاه "عبارات غامضة- وضع/ مقال غامض". والغموض من الكلام خلاف الواضح.. والمسألة الغامضة هي التي تحمل في طياتها النظر والدقة.

الوضوح: لغة وضح الشيء أو الأمر: بانَ وظَهَرَ، وضح الصبحُ وضح الموقفُ: انكشف وصار مفهوماً، وضح الوجهُ: حَسُنَ، أخذ الطفلُ يكبر ويضح وجهه. أوضح نصاً مبهماً: شرحه وفسره. أتضح الأمرُ: وضح وبان وظَهَرَ وزال تعقيده أو غموضه، ويقال: يتضح من كلامه أنه صادق، وأتضحت له الحقيقةُ.

الغموض والوضوح في الاصطلاح النقدي

قضية الوضوح والغموض بشكل عميق في العصر العباسي مع ظهور المحدثين ومذهبهم في الصنعة والبدیع، وأشير إلى أبي تمام على وجه الخصوص بأنه شاعر يؤثر الغموض، إذ يعقد المعنى، ويبالغ، ويحيل، ويبعد في الصور، ويستعمل الغريب من الألفاظ.

ونقل التاريخ النقدي الحوار الطريف الذي دار بينه وبين ناقديه أبي سعيد الضرير وأبي العميتل عندما استمعا إلى شعره فقالا له: «لم لا تقول ما يفهم؟» فكانت اجابته التي استظرفت: «لم لا تفهمان ما يقال؟».

ثم اتهم شعراء آخرون بعد ذلك بالغموض كأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري وغيرهما. وعلى وجود نقاد أشاروا إلى الغموض في الشعر، وعدوه مبنية، إلا أن هذا الغموض - كما سنوضح - كان له مفهوم خاص يختلف عن مفهومه في الشعر الحديث، كما أن الغموض ظل - بشكل عام - عيباً يؤاخذ به الأديب: شاعراً كان أم ناثراً.

تاريخ قضية الوضوح والغموض:

الوضوح والغموض: في الشعر قضية قديمة قدم الشعر نفسه، أي منذ نشوء الأدب في العصر الجاهلي، حيث كانت السمة الغالبة على الأدب آنذاك الوضوح نظراً، لأن تفكير العربي بعفويته يميل إلى الوضوح وينفر من الغموض، حيث كانت الحياة البدوية الساذجة لها أثرها في طبع فكر البدوي بالبساطة والوضوح، فجاء تبعاً لذلك أدبه بعيداً عن التعقيد قريباً إلى الوضوح نظراً لبساطة الحياة التي يعيشها في أحضان الطبيعة المكشوفة، مما قد يُعد سبباً يفسر به صفاء فكر العربي ووضوحه بشكل عام، وسبب آخر يحتم عليه الوضوح هو المتلقي الذي يتلقى الشعر سماعاً من إنشاد الشاعر، وبالتالي فليس له وقت للتأمل.. لكن وإن كان الوضوح هو السمة الغالبة في الشعر فقد تسرب شيء من الغموض إلى الشعر في صورته ومعانيه ابتداءً من العصر العباسي.

طرق التعبير على المعاني:

ذكر حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء بأن أوجه الدلالة على المعاني: ثلاثة؛ دلالة إيضاح، ودلالة إبهام، ودلالة إيضاح وإبهام معا.

مواضع استحسان كل من الغموض والوضوح:

حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء أن الغموض يحسن في الإلغاز والتكنية وما شابههما، لأن الشاعر يتعمد عدم التصريح، ويقصد إلى التعمية والتضليل.. وما عدا ذلك فالوضوح هو السبيل، والقصد هو الإبانة والتصريح.

من أسباب الغموض في المعاني:

منها ما يرجع إلى الألفاظ والعبارات المدلول بها على المعنى بسبب الغرابة أو التركيب كالتقديم والتأخير؛ ومنها ما يرجع إلى المعاني نفسها كأن يكون المعنى في نفسه دقيقاً ويكون الغور فيه بعيداً، أو يكون المعنى مبنيًا على مقدمة في الكلام، أو يكون مضمناً معنى علمياً أو خبرياً تاريخياً أو محالاً به على ذلك ومشاراً به عليه فيكون فهم المعنى متوقفاً على العلم بذلك المضمن العلمي أو الخبري، أو يكون المعنى مضمناً إشارة إلى مثل أو بيت أو كلام سالف بالجملة؛ ومنها ما يكون سبب غموضه اللفظ والمعنى معا.

الميل على الوضوح هو الأصل في الثقافة العربية:

ظل النقد العربي، بل الثقافة العربية الإسلامية عامة، تميل إلى الوضوح، وتحت عليه، وتعيب الغموض والتعقيد بأشكالهما كافة، وتستهجنان كل ما يمكن أن يكون سبباً فيهما: كوحشي الألفاظ، وغرابة المفردات، والمعاطلة في التركيب، والتقديم والتأخير من غير سبب بلاغي، والبعد في الاستعارة، وعدم المقاربة في التشبيه وإدخال الفلسفة والمنطق، وما شاكل ذلك.

والأمثلة التي تدم الغموض كثيرة؛ قال علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - «البلاغة افصاح قول عن حكمة مستغلفة، وإبانة عن مشكل» ومثله قول الحسن بن علي - رضى الله عنهما: «البلاغة ايضاح الملتبسات، وكشف عوار الجهالات، بأسهل ما يكون من العبارات» وقوله: «البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل عبارة.» ومن ذلك قول محمد بن علي - رضى الله عنهما: «البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ؛

حجج أنصار الغموض والوضوح:

قضية الوضوح والغموض قضية نقدية - كما ذكرنا - نشأت بين أنصار القديم وأنصار الجديد، أو بين أنصار البحري وأنصار أبي تمام، وقد دافع كل فريق على مذهبه، وناصره بالحجج والبراهين، وانتقص من خصمه وخطأه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهذا بيان ذلك:

- يميل أصحاب البحري إلى "حلاوة اللفظ، وحسن التلخيص، ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وقرب المأثري، وانكشاف المعاني". أهل أصحاب أبي تمام فيميلون "إلى غموض المعاني ودقتها. مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج.

- عاب أصحاب أبي تمام من أعرض عن شعر صاحبهم، بعدم الفهم وقصور العلم، وقد "فهمته العلماء وأهل النفاذ في علم الشعر" ويستشهدون على دعواهم بآراء الأعرابي، الذي "كان يردّ على (أبي تمام) من معانيه ما لا يفهمه، ولا يعلمه، فكان إذا سئل عن شيء منها، قال: لا أدري، فيعدل إلى الطعن عليه

- وأصحاب أبي تمام يعترفون بأن صاحبهم قد "أتى في شعره بمعان فلسفية، وألفاظ عربية، فإذا سمع بعض شعره الأعرابي لم يفهمه. فإذا فسّر له فهمه واستحسنه". فأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت 291)، أحد الطاعنين على أبي تمام، استحسّن شعر الشاعر، بعدما شرحه له بنو نوبختين.

- ويرد أصحاب البحري: «أما قصور فهم ابن الأعرابي عن شعر أبي تمام، فالعيب والنقص في ذلك يلحقان أبا تمام، إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابي وأمثاله".

- ويرد أصحاب البحري على الدعوى الأخيرة، في أنّ ما غمض عن شعر أبي تمام على الأعراب ممكن فهمه إذا ما فسّر، بأنّ "هذه دعوى من (أصحاب الشاعر) على الأعراب في استحسان شعر صاحبهم، إذا فهموه. ولا يصحّ ذلك إلا بالامتحان".

نقد حجج أنصار الفريقين:

إن الوقوف على الحجج التي تقدّم بها الطرفان المتخاصمان، يضعنا أمام قضايا هامة في النقد العربي القديم. أهمها:

- الحكم على جودة الشعر في نظر أنصار القديم مقترن بمقدار سيرورته بين الناس، فمن قبل الناس شعره هو دون شك أفضل. هذا يعني بالتالي أنه على الشاعر أن يتفق شعره وذوق المتلقين. وحتى يتم ذلك، ينبغي أن يكون واضحاً مفهوماً، وهذا ما فعله البحري "حين تعمد حذف الغريب والوحشي من شعره". غير أن نظرة أنصار الجديد تختلف، فالشعر عندهم "لا يقيّم بمدى انتشاره بين الناس، بل يقيّم بمدى عمقه، وفهم ذوي الثقافة الشعرية العالية" فيصبح بالتالي، الحكم على الشعر بحسب النص لا بحسب المتلقي. وهكذا، يرتقي الجمهور إلى الشاعر، بدل أن ينزل هو إليهم. ولا يعود الشاعر مضطراً لأن يقول ما يفهم، بل على الجمهور أن يفهم ما يقال. خالفاً بأسلوبه لغته وصوره المميزة. لكن هذا الكلام لا يلغي أبداً دور الجمهور، فهو أيضاً مُبدع للنص بالقراءة.

- ثقافة الشاعر: أصحاب أبي تمام يرون أن "الشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم". لأن الأول يضيف إلى القارئ معرفة جديدة، أما الثاني فلا يضيف أي شيء، ولهذا فأبو تمام مُقدّم عند أصحابه، لأنه صاحب ثقافة واسعة في الشعر وروايته، وفي الفلسفة. وقد استطاع أن يوجد في شعره تالفاً مبتكراً بين المعنى الفلسفي غير

العربي، واللفظ العربي؛ يقول أدونيس: " إن عدم فهم الشعر لا يعود إلى إغرابه، بل يعود إلى أن قارئه قليل الدربة والممارسة، ومنذ أن تنكشف له معانيه، بالممارسة والدربة، يزول إغرابه، ويصير واضحاً"

- ويرفض أصحاب البحتري هذه المقولة، فشعر العلماء عندهم لا يرقى إلى مستوى شعر الشعراء. يقول الأمدي على لسان صاحب البحتري مُعللاً: " فقد كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً، وكان الأصمعي عالماً شاعراً، وكان الكسائي كذلك، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء، وما بلغ بهم العلم طبقة مَنْ كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء. لهذا وجب تقديم البحتري على أبي تمام؛ " إذ كان معلوماً شائعاً أن شعر العلماء دون شعر الشعراء .

- تقصير النقاد في دراسة شعر المحدثين: تقصير النقاد في دراسة شعر المحدثين، بالنسبة إلى دراساتهم لشعر القدماء. يقول عبد العزيز سيد الأهل: " إن شعر المحدثين في زمان أبي تمام لم يكن أهل عصره قد درسوه كالقديم، ولم يُدَلِّ لَهُ أئمة لهم كالذي ذلّوه، ولم يجد له رواة يحفظونه ويكثرون من روايته، ولم يعرفوا ما يضبطه وما يقوم به، وقصروا فيه فعابوه. «لهذا، كانت الأسس النقدية التي اعتمدها النقاد في نقد شعر أبي تمام، صحيحة بالنسبة إلى الشعر القديم الذي ألفوه، لا بالنسبة إلى ما يمكن أن يُستنبط من شعر أبي تمام من أحكام .

- تبقى قضية الوضوح والغموض نسبية، بحسب ثقافة المتلقي وتفاعله مع الشعر والشاعر. فإذا كان أبو تمام يريد أن يرقى بالمتلقي إلى مستوى فهمه، فإن من واجب الشاعر أيضاً أن يسعى ليبلغ المتلقي رسالته بوضوح وبلاغة فاعلة. وهذا لا يعني الابتذال، فالوضوح شيء والابتذال شيء آخر، كما أن الغموض الموحى الممتع بلذة الكشف شيء والغموض المبهمة المحبط شيء آخر. ويبقى الشعر لغة الشعور وفسحة التقاء بين روحين، لتبلغا في لحظة صوفية روح الحقيقة المطلقة.

الأمدي وكتابه النقدي الموازنة:

- التعريف بالأمدي: (000 - 370 هـ = 000 - 980 م . الحسن بن بشر بن يحيى الأمدي، أبو القاسم: عالم بالأدب، راوية، من الكتاب، له شعر. أصله من أمدمولده ووفاته بالبصرة. من كتبه (المؤتلف والمختلف - ط) في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم، و(الموازنة بين شعر البحتري وأبي تمام - ط) و (معاني شعر البحتري) و(الخاص والمشارك) في معاني الشعر و (نثر المنظوم) و(تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر) و(تفصيل شعر امرئ القيس على الجاهليين) و (كتابتى فعلت وأفعلت) و(ديوان شعر) نحو 100 ورقة.

- التعريف بكتاب الموازنة بين الطائنين: يركز الكتاب على مذهبين فنيين تكوّننا في القرن الثالث الهجري، وهما: مذهب أبي تمام الذي كان يعنى بالتعمق بالمعاني، كما كان يعنى بالمحسنات البيديعية وبالغ وأسرف فيها. ومذهب البحتري الذي كان يحذو حذو الأوائل، واعتنى بحلاوة اللفظ ونقاء العبارة، واستخدم المحسنات البيديعية ولكن دون إسراف أو تكلف. والمؤلف يتغاضى عن ذكر النتيجة النهائية ولمن كانت الغلبة إلا أنه من الواضح - من وجهة نظره - تفوق البحتري، رغم ما ذكر بأنه سيكون موضوعياً في طرحه، ومحايداً في موقفه، لكن واضحاً، تحيزه الشديد للبحتري وتعصبه له، رغم محاولته إخفاء ذلك. والكتاب بجملته يعد من أهم كتب النقد في تلك الحقبة التاريخية.

خاتمة واستنتاج:

أجمع النقاد والبلاغيون العرب على أن التعبير المجازي أبلغ من التعبير الحقيقي، وأن الكناية - ومن ضربوها الرمز - أبلغ من التصريح.

فالوضوح الذي نصف به الفكر العربي لا يعني السطحية، والتعبير المباشر، وأداء المعنى بشكل مبتذل رخيص، أو تقريره في الذهن تقريراً ساذجاً كما تقرر الأقوال العادية في لغة الخطاب اليومي؛ إن الوضوح الذي هو من صفات البيان العربي ليس شيئاً من ذلك، ولكنه يعني في مفهومه العام بلوغ النص المتلقي، ووضوئه إليه، لأن من غايات اللغة - سواء أكانت عادية أم أدبية - الاتصال والإفهام ولكن من طبيعة القول الأدبي أنه لا يصل بسهولة، ولا يسلم قيادة من أول سانحة، لأن لغته - في أصلها - شفاقة كثيفة، إذ هي تستعمل فيه بشكل طريف جديد، وهي تكتسي بكثير من الظلال والايحاءات، مما يجعل التعامل مع النص الأدبي - والشعري خاصة - تعامللاً غير ميسور للجميع، وهو يحتاج إلى غوص وتأمل، وإعمال فكر، وإيقاظ خاطر، مرفوداً ذلك كله باستعداد ثقافي، وذوق نقدي، ومملكة مدربة مصقولة